بين صالح جغام وجعفر ماجد

حقيبة المفاجآت

في القسم الاخير من المجموعة الشعرية «تعب» للدكتور الشاعر جعفر ماجد والذي جعل له عنوان تأملات في الحياة والموت قصيدة في غرض الرثاء تحت عنوان حقيبة المفاجآت وهو نفس عنوان برنامج الفقيد الراحل صالح جغام.

لئن كان موضوع القصيدة تقليديا يندرج ضمن غرض الرثاء فان القصيدة قد فاضت على معاني التفجع المألوفة لتلامس تخوما جديدة في القول الشعري بالرغم من سلوكها الدروب التقليدية مبنى ومعنى، فأين تتجلى مظاهر التجديد؟

مظاهر التجديد في هذا القصيد كامنة في شخصية المرثي فهو اذاعي قدير وصاحب معاناة ثقافية وهذه صفات جديدة وطارئة على سجل الرثاء في الشعر العربي الذي يجد التعبير فيه سهلا اذا كان المرثي من الأقارب او من الفرسان او من الأمراء والأدباء والعلماء اما والحال يتعلق باذاعي فقد عمد جعفر ماجد الى المعاني التالية:

* في مطلع القصيد اعتبر الميت نائما في قوله:

نم هنيئا فأنت ياصاح متعب
نم هنيئا وخلّنا نتعذّب

فأكد النوم والهناء بالتكرار وجعل من صيغة الأمر طلبا برفق ورجاء من خلال السياق مع المقابلة بحال المتكلم في صيغة الجمع ذلك ان الفقيد كان موته كأنه استراحة المحارب بينما العذاب كان من نصيب (نحن)

فمنذ المطلع تحدث المفاجأة في سير الأمور ذلك ان الميت قد تعذب وهو يغالب الموت لكن الشاعر قلب الآية وجعله ينام نوما مطمئنا بينما ظلّ هو وصحبه في العذاب، ولعلّ هذه المباغتة الشعرية صاغها الشاعر من عنوان البرنامج المذكور فكان طالع القصيد منسوجا من خيوط تفاصيل شخصية المرثيّ.

* وفي البيت الثالث يصرح الشاعر بالمفاجآة قائلا:

أنت فاجأتنا فهل شئت حقّا
أن تظلّ المفاجيء المتوثب

وفي البيت الرابع ترد المفاجأة بصيغة الجمع قائلا:

قد صنعت المفاجآت بحذق
وسبقت الجميع في كل مشرب

وفي البيت الخامس يصرّح بالحقيبة الا وهي حقيبة المفاجآت التي تصبح المفاجآت حقيبة فتنقلب العلاقة الاسناديّة بين الكلمتين من مضاف ومضاف اليه الى مبتدإ وخبر.

* لقد جعل جعفر ماجد الموت نوما في مطلع القصيد ثم بداية من البيت السادس يجعل موت صالح جغام مفاجأة من مفاجآت حقيبته كأنه وهو ميّت ما يزال حيّا يفاجيء الأحبّة بجميل وغريب ما لا يتوقعون قائلا:

غير ان التي فعلت أخيرا
أبدا لم نكن له نتأهب

أما بقية معاني الرثاء فهي من سجلات منتظرة في هذا الغرض كالهلع والدموع والتأمل والحكمة الا أن الأبيات الثلاثة الأخيرة فيها معان جديدة في الرثاء وهذه الأبيات هي:

أكذا نحن دائما لا نبالي
بعذاب الطيور حين تعذب
فاذا آذن الرحيل وغابت
شاقنا صوتها وأشجى وأطرب
طلعت شمس ذا النهار علينا
أين صوت تحبه حين يغضب؟

فتشبيه الموتى بالطيور جديد على الشعر العربي القديم الذي قد نقرأ فيه بعض الاشارات الى طائر خرافي يخرج من رأس القتيل صائحا اذا لم تأخذ عشيرته بثأره ويسمى هذا الطائر الصدى وقد ورد في لسان العرب قول ابي عبيدة:

سلط الموت والمنون عليهم
فلهم في صدى المقابر هام

لكن في هذه القصيدة يكون الطائر رمزا للمعاناة وللعذاب وهما قدر المبدع الملتزم بالقيم النبيلة في هذا العصر والذي يعترف له الناس بقيمته وبعطائه ولكن بعد ان يدفع حياته على الحساب فختام القصيدة ورد في معاني الحكمة بأسلوب جديد.

أما البيت الأخير فهو مسك الختام حيث يجعل جعفر ماجد الشمس طالعة رغم هذه الاحزان الا ان شخصية المربي تظهر من جديد في الكلمة الاخيرة عند قوله:

أين صوت تحبه حين يغضب

فهذه الصيغة هي الى الحسرة أقرب وهي تمثل صفة من صفات المرحوم صالح جغام المتمثلة في غضبه الواضح وهو وراء المصدح عند الغيرة على الذوق العام وعند التحمس الى المعرفة والثقافة فالقصيدة اقتبست في كثير من أبياتها شخصية المرثي واستعملت أساس برنامجه الاذاعي بحيث ان غرض الرثاء فيها تلون بخصائص المرثي فجعفر ماجد في هذه القصيدة جدّد ضمن الاطار التقليدي... انه التجديد من الداخل..

* سوف عبيد

1997 - الضياء -